محمود غنيم

المروءة المصنعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم المؤلف

ليست هـذه الرواية حديثة العهد بالتأليف ، وإن كانت حديثة العهد بالطبع على النحو الذى يراها به القراء ، ولم أكن أقدِّر يوم إنشائها أننى سأدفع بها يوما ما إلى المطبعة ، ولم أكن أقدِّر قبـل إنشائها أننى سأخوض ميدان الشعر المسرحى ، ولـكننى دُفعت إلى ذلك دفعا منذ أكثر من عشر سنوات . كان ذلك إذ كنت مدرسا بمدرسة المعلمين بالإسكندرية ، وأسندت إلىَّ مهمة الإشراف على فرقة التمثيل بالمدرسة ، وكان علىّ إذ ذاك أن أبدأ عملى باختيار رواية تناسب المسرح المدرسى ، ولهذا النوع من المسرحيات خصائص ؛ منها التجرد من العنصر النسائى ، وعبثا حاولت العثور على مسرحية من هذا النوع تفى بالغرض وتسلم من المآخذ . وحينئذ بدا لى أن الوقت الذى أصرفه

فى البحث عن رواية قديمة ، أولى به أن يُصرَف فى إنشاء رواية جديدة . ومن هنا كانت رواية « المروءة المقنعة » .

على أننى ما كدت أفرغ من إنشائها حتى فوجئت بالنقل من تلك المدرسة ، فعز علىّ إذ ذاك أن يذهب جهدى سدى ، فدفعت بفصول تلك الرواية إلى صحيفة دار العلوم .

وقد ظلت أعداد سنة ١٩٤٠ من تلك الصحيفة هى المصدر الوحيد لهذه الرواية التى أخذت مكانها بادئ الأمر على المسارح المدرسية ومنها انتقلت إلى مختلف الهيئات ، ثم أخذت سمتها إلى الأقطار الشرقية ، فمثلت فى اليمن وفى الكويت ، وفى لحج ، وفى سوريا ، وفى العراق ، وفى الأردن ، وفى غير تلك البلاد . والحق أننى لم أكن أقدر لها هذا الانتشار ولا سيما فى تلك الأقطار . على أن أعداد صحيفة دار العلوم التى اشتملت على تلك الرواية — وقد كان الحصول عليها من العسر بمكان — قد نفدت جميعها ، وما تزال الرسائل تنهال علىّ فى طلبها ، وآخر طلب من هذا القبيل تقدم به إلىّ سعادة مستشار الدول العربية بناء على تكليف ورد إليه من جهة عراقية .

حينئذ لم أجد بداً من التفكير فى طبع تلك المسرحية مستقلة . على أن هذا التفكير ما كان ليخرج إلى حيز العمل لولا همة صديقى الأديب الأستاذ « صالح فرور » الذى أبت له أريحيته إلا أن يضع عن كاهلى ما يقتضيه الطبع من أعباء ، وإليه قبل كل أحد يرجع الفضل فى ظهورها فى هذا الثوب القشيب .

أما موضوع الرواية ؛ فهو قصة « عكرمة الفياض » و« خزيمة بن بشر » وهى قصة مأثورة فى كتب التاريخ والأدب قد تكون معروفة للكثيرين ، ولكن الجديد فيها ؛ هو الصياغة المسرحية فى القالب الشعرى ، وليس هذا من الهنات الهينات .

وقد استهوانى فى تلك القصة مافيها من السمو الخلقى ، والأريحية التى عرف بها العرب ، وينذر أن يُؤثر مثلها عن غيرهم من الأمم .

وقد حدثت وقائع القصة فى أرض الجزيرة بالعراق أيام خلافة سليمان بن عبد الملك ، وتتلخص فى أن سريّا من سراة الرَّقة « خزيمة بن بشر » أملق بعد غنى ؛ حتى انفض من حوله أصحابه ، فترامى خبره إلى والى الجزيرة « عكرمة الفياض »

فذهب إليه متنكرا ، ووصله بصلة كبيرة دون أن يعرِّفه من هو ؟ . ثم تشاء المقادير أن يعزل الخليفة عكرمة عن ولاية الجزيرة ويوليها خزيمة ، فيحاسب الثانى الأول ، فيجد عنده فضولا لا يستطيع أداءها ، فيزج به فى السجن غير عالم أنه صاحب اليد الطولى عليه ، ثم ينجلى الأمر بعد ذلك ، فيبادر إلى إطلاق سراحه معتذرا ، كما يجازيه الخليفة — وقد كان ترامى إليه خبره — أحسن جزاء.

ويلاحظ أننا :

أولا : جردنا الرواية من العنصر النسائى لتيسير تمثيلها ، ولا سيما فى المسارح المدرسية .

ثانيا : لم نتصرف فى الحوادث المأثورة بزيادة أو نقص أو تحوير ؛ إلا بالمقدار الذى اضطرتنا إليه الحبكة المسرحية دون أن يمس جوهر التاريخ ؟

محمود غنيم .

القاهرة فى { جمادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ
{ فبراير سنة ١٩٥٢ م

أشخاص الرواية

عكرمة الفياض : والى الجزيرة من قبل سليمان بن عبد الملك .

خزيمة بن بشر : من سراة الرقة ووالى الجزيرة بعد عزل عكرمة

سليمان بن عبد الملك: أمير المؤمنين .

أسامـــة : شخصية موضوعة ابن عكرمة .

عمـــرو : « « مولى خزيمة .

قيس : « « « عكرمة .

سعد وسعيد : شخصيتان موضوعتان بطانة عكرمة .

نكرات مسرحية من حشم وخدم وشعراء ومغنين . . . . إلخ

زمن الرواية : أيام خلافة سليمان بن عبد الملك .

مكان الرواية : العراق والشام « الرقة ودمشق »

الفصل الأول

المنظر الأول

يرفع الستار عن بهو فى منزل خزيمة بن بشر بالرقة فى أرض العراق يشتمل على أثاث عتيق بال . خزيمة نائم فى غرفة متصلة بالبهو . الوقت قبيل الغروب . ليس بالبهو إلا الغلام عمرو

عمرو : (يناجى نفسه)

ويحى ! وويح سيِّدى ! أزرَى بِهِ ضِيقُ اليدِ
أطال مِنْ رُقادِه لكِنَّهُ لمْ يرْقدِ
كيْف ينامُ وهْو طا وى البطْنِ لمْ يُزوَّدِ؟
قدْ لزِم البيْت لُزو مَ راهِبٍ لِمعْبدِ
ولمْ يكُنْ عنِ الندَى ولا الوغى بِمُقْعَدِ
ياقصْرُ ، كُنْت ملْجأً رحْباً لكُلِّ مُجْتَدِ
يؤُمُّهُ العافى فيقْ تاتُ بِهِ ويرْتدى
لقدْ هوى الفقْرُ بِعا لى رُكْنِك المُشَيَّدِ
لوْ لاح لِى الفقْرُ بوجْ هِهِ الكئِيبِ الأسْودِ

إذنْ أطحْتُ رأسَهُ بِصارِمٍ مُهَنَّدِ
كيْ يستريحَ النّاسُ مِنْ هذا الشَّقاءِ السَّرْمدى
ما أصْعبَ البُؤْسَ على الْـ حُرِّ الْكريمِ الْمجْتدِ !
ما أقْبحَ الإمْلاقَ بعْـ ـدَ الْعِزِّ ، بعْدَ السُّؤْدُدِ !
ويْحى ! وويْحَ ! سيِّدى أزْرى بِهِ ضيقُ اليد

(صوت من مخدع خزيمة)

يا عمْرُو

عمرو : لبّيْك يامَوْلاى

خزيمة : خُذْ بِيدى

ويْحى ! صُروفُ اللّيالى أوْهنتْ جَلَدى

عمرو : (وهو ينهضه)

سلِمْتَ ياسيّدى مِنْ كُلِّ نازِلةٍ

أفْديكَ بالنّفْسِ قبْلَ الأهْلِ والْولدِ

خزيمة : (وهو داخل المسرح)

لمْ يَبْقَ لى غيْرُ عمْرٍو هُوَ الْجديرُ بِشُكْرى

باقٍ على العهدِ وافٍ فى عهد يُسْرى وعُسْرى
فوجْهُهُ وجْـهُ عبْدٍ وفِعْلُهُ فِعْلُ حُرِّ
كمْ مِنْ صديقٍ وفِيٍّ قدْ صدّ عنّى لِفقْرى !

عمرو : مَوْلاى أبْصَرتُ عمّاراً وخارِجةً
وخالِدًا ظُهْرَ هـذا الْيومِ غادينا
مرّوا على بابِنا مرًّا فما عطفوا
ما بالُهُمْ حين مرّوا لا يعوجونا ؟

خزيمة : ياعمْرُو ، معْذِرة لِلْقوْمِ إنْ صَدَفوا
لاتنْس أنّى لهُمْ أصْبحْتُ مدْيونا
لاتنْس أنّهُمُو ياعمْرُو قدْ بسطوا
بِالْمالِ أيْديَهُمْ فى شِدّتى حينا
واسَوْا أخاهم ، فلمّا اسْتيْئسوا خَلصوا
وذاكَ جُهْدُ الأخِـلّاءِ الوفِيِّينا

عمرو : مَوْلاى إنّك فى ضيقٍ ومتْربةٍ
لـكِنّ صحْبكَ فى النّعْماء يلهونا

دعْ هؤلاء ، وخُذْ مِن غيْرِهِمْ فهُمُو
مِلْءُ العِراقِ كثيرٌ لا يُعَدّونا
أُمْدُدْ إليْهِمْ يدًا كَمْ فاضَ نائِلُها !
كَمْ يا خُزَيْمةُ واسيْت المساكينا !

خزيمة : (منفعلا)

حاشا يمُدُّ ابْنُ بِشْرٍ لِلسُّؤالِ يدا
ولوْ تناول زَقّوماً وغِسْلينا

عمرو : (فى تباله)

عفْوا خُزَيْمةُ ، إشْفاق عليْك محا
رُشْدى فأصْبحتُ يامَوْلاى مأفونا

عمرو : (بعد برهة)

مَوْلاى، إنْ كنْت لاترْضى بذاكَ إذنْ
بِعْنى بعِشْرين فَلْساً أوْ ثلاثينا

خزيمة : (منفعلا)

ياعمْرُو، ويْحكَ اهلْ أصبحْت تمْقُتُنا
فى الضّيقِ ؟ هلْ أنْت أيْضاً زاهِدٌ فينا !؟

عمرو : (فى تياله)

كلاّ ، لعمرُك لم أقصِدْ ، يلوحُ على
ملامِحى أنّنى قد صرتُ مجنونا

خزيمة : ياعمْرُو ، لا تذْكُرْ لنا الجنونا

* * *

هوِّنْ عليْك الأمْرَ كىْ يهونا
ماذا لديْك اليوْم مِنْ عَشاءِ ؟
لى مدّةٌ ما اقْتتُّ غيْر الْماءِ

عمرو : أعْددْتُ زاداً طيِّباً شهِيًّا
هيّا بِنا إلى الْعشاء هيّا

خزيمة : وما الّذى أعددْتهُ يا عمْرُو ؟

عمرو : خُبزٌ وزيْتٌ دسِمٌ وتمْرُ

خزيمة : مِنْ أيْن ياعمْرُو ، اشْتريْت الزّيْتا ؟
والتّمْرُ مِنْ أيْن بِهِ أتيْتا ؟

عمرو : بِعْتُ السِّراجَ سيِّدى بِدِرْهمِ
وقُلْتُ يكْفينا ضِياء الأنْجُمِ

ثمّ اشْـتريْتُ ذلِكَ الطَّعاما
ألسْتُ عبْداً حاذِقاً هُماما ؟

(يهمان بتناول الطعام فيسمع طرق على الباب)

خزيمة : طارِقٌ بالْبابِ

عمرو : (وهو يفتح) مَن ذَا يطْرُقُ ؟

سائل : أنا مُسْتجْدٍ فقيرٌ مُمْلِقُ
جِئْتُ أسْتجدى ابنَ بِشْرٍ دِرْهما إنّهُ بحْرُ العطايا

عمرو : تُرْزَقُ

السائل: لاتكُنْ كزّاً شحيحاً يافتى إنّ موْلاك غمامٌ مُغْدِقُ

عمرو : سيِّدى ليْس هنا

خزيمة : لا ، بلْ هُنا حاضِرٌ ،ويْحك! هلّا تصْدُقُ
أعْطِهِ الزّاد الّذى هيّأْتَهُ

عمرو (فى دهشة) سيِّدى ، نحْنُ إليْهِ أشْوقُ

خزيمة : (بلهجة الآمر) أعْطِهِ

عمرو : (للسائل) خُذْ

(ثم لنفسه) ليْتَ شِعْرى ضَلّةً !

أجوادٌ سيِّدى أمْ أحمقُ ؟

السائل : لكَ شُكْرِى يا ابْنَ بِشْرٍ إنما أَنْتَ فى الرَّقَّةِ بَدْرٌ مُشْرِقُ

(ثم ينصرف السائل)

عمرو : (دافاً يداً على يد)

أخذ الزَّاد وَوَلَّى ، وَيْحَهُ ! ذاكَ واللهِ بـلاءٌ مُطْبِقُ

خزيمة : (لعمرو بعد انصراف السائل)

ذاكَ يا عمْرُو ، فقيرٌ جائعٌ فإذا لم يُعْطَ زاداً يسْرِقُ

ما تعَودْتُ قَدِيماً أنْ أرى منْزِلِى فى وجهِ عافٍ يُغْلَقُ

يا إلهى ! لكَ أشْكُو علّتى همةٌ عُلْيا ، وعيْشٌ ضيِّقُ

(يسمع طرق بالباب)

عمرو : (فى تأفف)

كثرَ الطّارقون ! من بالْبابِ ؟

شاعر : شاعِرٌ مُمْلِقٌ رفيعُ الجنابِ

جِئْتُ أُطْرِى خُزَيْمَةَ بقصيدٍ رائعٍ صيغ مِن نُضَار مُذابِ

عمرو : سيِّدى ليْس هاهُنَا .

عمرو : (بعد أن ينظر إلى سيده فى خوف)

بلْ ، هُنَا ادْخل

الشاعر : لك شكْرِى يا أكْرم الْحُجّابِ

(يقف الشاعر أمام خزيمة وينشد)

يا بْنَ بِشْرٍ إليك أحْدو رِكابى جِئْتُ أشكو إلى جنابِك مابى

لم أجِدْ فى الْعِراق مِثْلك سمْحاً أرْيحيّا يُعطى بغيْرِ حسابِ

أنْت فى الرَّقةِ الخصيبةِ نهْرٌ نرْتوى مِنْهُ ساعة الإجدابِ

إنْ أقُلْ : أنْت يا ابْنَ بِشْرٍ سحابٌ فكأنِّى رفعْتُ قدْر السّحابِ

خزيمة : (وقد كان لابساً جبتين يخلع إحداهما على الشاعر ويقول):

قَدْ أجدْت القريض ، شكراً جزيلاً

قُمْ تجلْببْ بذلك الجلبابِ

وَإذا كان ما مَنَحْنا قَليلاً فاجْعَلِ الْعُذْر فى مكان الْعِتاب

الشاعر : (وهو منصرف)

هِبَةٌ جَزْلَةٌ .. سَأَلْتُ إلهى لك يوم الحساب حُسن الثَّوابِ

عمرو : (لنفسه دافاً يداً بيد)

ما كفاهُ بَذْلُ الطعامِ فأمسى ... كافاً مُغرماً بِبَذْلِ الثِّيابِ

خزيمة : أيا عمْرُو، وَيحك ! لا تَعْذُلِ ... متى ضاق عنْ طارقٍ مَنزِلِي ؟

سأصْبِرُ صبْرَ الجوادِ الكَرِيمِ ... إلى أن أرى غمْرَتي تنجلي

أرى الحُرّ مثلَ الحُسامِ إذا لم ... يُقَلَّبْ عَلَى النَّارِ لم يُصْقَلِ

فيا حادِثاتِ الزَّمانِ ، هلمِّي ! ... أنيخي بِبَابي ، وَلا تَرْحَلِي

ألَمْ أكُ أصْبَحْتُ مِنْ غَيْرِ مالٍ ... فَإني بِمالِيَ لَمْ أبْخَلِ

فكَمْ قَدْ أوَيْتُ يتيماً وَكَمْ قَدْ ... عطفتُ عَلَى سائلٍ مُعْيِلِ !

إذا أنا أيسرْتُ كنتُ الجوادَ ... وَإنْ أنا أعسرْتُ لم أسْأَلِ

إذا ساءَ يوْمٌ صبرْتُ ، وَطاب ... رَجائِيَ في الزَّمَنِ المُقْبِلِ

إذا صَدَّ عَنّي الأخِلاَّءُ فالأرْ ... ضُ لم تَخْلُ مِنْ ماجِدٍ مُفْضِلِ

(طرق على الباب ، عمرو يفتح ويقول) :

مَنْ يَدُقُّ الْبابَ مَنْ ؟ مَاذا جَرَى ؟ ... سائلٌ أمْ شاعِرٌ يا هَلْ تُرَى ؟

عمرو : (بعد أن يرى عكرمة متنكراً)

مَنْ أنت يا مولاى ؟

عكرمة: (وهو مقنع)

لَسْتُ أَدرِى أَينَ الْفتَى خُزَيْمَةُ بْنُ بِشرِ ؟

عمرو : (لسيده)

مولاى، زائرٌ مُخِيفٌ مَنْظرُهْ أَخْوَفُ ما أَخافنى تنكُّرُهْ

خزيمة : (يسير نحو عكرمة)

هَل لك حَاجةٌ فأَقْضِيهَا لكا ؟

عكرمة: (مادًا يديه بصرة مال)

خُذْ هَذِهِ أَصْلِحْ بِهَا أَحْوالكا

خزيمة : (وهو يتأمل الصرة)

ما هذِهِ ؟ أَصِلةٌ ؟ أَمالُ ؟ أَنْت لعمْرِى سَيّدٌ مِفْضالُ

منْ أَنْت أَيُّهَا الْكريمُ الْمُجْزِلُ ؟

عكرمة: آسَفُ ، لاجواب عمَّا تسْألُ

خزيمة :أقْسمْتُ لاقَبِلْتُ مامنَنْتَا إِلَّا إِذَا عرَّفتَنى منْ أَنْتا

عكرمة: خُزَيْمَةُ ، بؤسك عَزَّ عَلَىَّ وغاد عنِ الْعَيْنِ طيبَ الْمنامْ

بِرَبِّكَ لا تُفْسِدَنَّ صَنِيعِي
بِهَتْكِ الْحِجَابِ وَكَشْفِ اللِّثَامْ
إذا رُمْتَ أنْ تعرِفَ اسْمِي فإنِّي
أنا « جابِرٌ » عَثَراتِ الكِرامْ »

خزيمة : بِرَبِّكَ ياصاحِ، زِدْنِي بيانا
عكرمة : مُحالٌ ، وَمِنِّي عليكَ السَّلامْ

خزيمة : (لعمرو بعد انصراف عكرمة)
ياعَمْرُو، أوْقِدِ السِّراجَ حالا حتَّى نَعُدَّ هذِهِ الْأَمْوَالا

عمرو : أيْنَ السِّراجُ ؟ هَلْ نسيتَ أنَّنَا
بِعْناهُ عصْراً ، واشْتَرَيْنا قوتَنا ؟

(ثم يأخذ الصرة وهو مأخوذ ويقول) :
أنا أعُدُّ الْمالَ فى الظَّلامِ عَمْرٌو وغدا أبْصرَ مِنْ حَذامِ
إنَّ بريقَ الذَّهَبِ الْوَهَّاجِ يشُقُّ جوفَ كُلِّ ليْلٍ دَاجِ

(بعد المال ويقول) :
أَلْفٌ، وَأَلْفٌ ، ثم أَلْفٌ مُتْبَعَةْ
من الدَّنانير بألْفٍ؛ أرْبَعَةْ

خزيمة : منْ ذا الَّذى جاد بها؟ يالَلْعَجَبْ!
ما سَمِعَتْ بِمِثْلِ ذلِك الْعربْ

عمرو : (فى فرح يخرجه عن رشده)
مولاى، هاتِ أشْترِ الطَّعاما وأشْترِ الْكُؤوس والمُداما
سنأْكُلُ الخِراف والنِّعاجا
ونلْبسُ الدِّمقْس والدِّيباجا
يالَلثَّراءِ والرَّخاءِ والْغِنى!
مَنْ أنا؟ إنِّى لستُ أدْرِى من أنا؟
أنا سُلَيْمانُ! أناهِشامُ! قدْ خضع الْعِراقُ لى والشَّامُ
أنا أخو المُنْذِرِ والنُّعْمانِ!
لا، بل أنا كِسرى أنو شِرْوَانِ!

(ستار)

المنظر الثانى

يرفع الستار عن بهو فى دار الإمارة بالجزيرة التى يحكمها عكرمة الفياض واليا من قبل سليمان بن عبد الملك . فى الدار أسامة بن عكرمة وعند الباب الغلام قيس . الوقت بعد العشاء .

أسامة : (لنفسه)

رَبَّاهُ ! ما الَّذى حصلْ ؟ أيْن أبى ؟ أيْن رحلْ ؟
أيْن تولىَّ فى الظَّلا مِ وحْدهُ على عجل ؟
ما ذاك مِنْ عادتِهِ لابُدَّ مِنْ أمرٍ جلل

قيسُ ،

قيس : نعمْ مولاى ،

أسامة : هلْ رأيت والدى ؟

قيس : أجلْ

إنَّ الأمير سيّدى ، صلى العِشاء وانْفتلْ
شاهَدتُهُ حين مضى بِبُرْدِهِ قدِ اشْتملْ
وفوْق وجْهِهِ ورأْ سِهِ قِناعٌ انسدلْ
ولستُ — يامولاى — أدْ رى ما بِيُمْناهُ حَمَلْ

لكِنَّهُ إلى خِزا نةِ النقـــود قدْ دخلْ
ثمَّ مضى فَرْداً ، وما أخبرنى على الأقلّ
وَدِدْتُ لوْ أَسْـأَلهُ عنْ سِرِّ ذلِك الْعملْ
لـكِنَّنى خَشيتُ مِنْ هيْبَتِهِ فلمْ أسَـلْ
صَـــبْرًا لعَلَّهُ يعو دُ بعْدَ بُرْهَةٍ

أسامة : لعـلّ

قيس : (بعد أن ينظر بإمعان نحو الباب)

أقْبِلْ أُسَامةُ ، أقْبِلْ ، أنْعِمِ النّظرا
مولاى عِكْرِمةُ الْفيّاضُ قدْ حضرا

أسامة : (فى سرور ودهشة)

حقًّا أتى ؟

قيس : إى وربِّى ، تِلْكَ مِشْيَتَهُ ولمْ يزلْ مِثْلماقدْ كانَ مُسْتِترا

عكرمة : (يدخل وهو فى تنـكره)

منْ هاهُنا ؟

أسامة : أنا أنا أسامةُ أبى أبى اهلْ عُدْتَ بِالسّلامةْ!

عكرمة : هل كنتُ فى حربٍ ؟

أسامة : وأىِّ حربِ

إنّك يا أبى شغلتَ قلبى

عكرمة : الخطْبُ سهلٌ يابُنىّ، فاطْمئنْ

أسامة : لايا أبى ، فالأمْرُ فوْق ماتظُنْ

باللهِ أينَ كُنْت فِى جُنْح الدُّجى ؟

عكرمة : بنىَّ ، لا تتْرُكْ أباك مُحْرجا

أسامة : سلِمْتَ ياأبى مِن الإِحْراج هُناك مايدْعُو إلى اللّجاجِ

أما علِمْت ما أصاب أُمّى ؟

عكرمة : ويْحك! ماأصاب بِنْتَ عمى؟

أسامة : هيْهات ما قرّ لها قرارُ والدّمْعُ فوْق خدِّها مِدْرارُ

تقولُ : فيم يخْرُجُ الأميرُ ؟ ليْلاً ومنْ ياهلْ تُرى يزورُ ؟

أزوْجةً أخْرى يزورُ ياتُرى؟ لوْ لمْ يكُن هذا لما تنكّرا

إنّك يا أبى ، شغلْت بالها

وإنْ تكُنْ شكّتْ فقدْ حقّ لها

عكرمة : حسْبُك ما أبْدَيْتَ مِنْ أسْبابِ

ما كان هذا الأمْرُ فى حِسابى

عكرمة : (للحاجب)

يأيها الحاجِبُ ،قُمْ ودعْنى مُنْفرِدا هُنَيْهةً مع ابْنى

عكرمة : (بعد خروج الحاجب)

أُسامةُ،قُلْ لِأُمِّك انْ تَراعى فحقُّكِ لَيْس بِالْحقِّ المُضاعِ

خرجْتُ ؛ وما خرجْتُ لِأَجْل إِثْمْ

فلَيْس الإِثْم ويْحكِ ! مِنْ طِباعى

خرجْتُ إلى مواساةِ ابْنِ بِشْرٍ

ولَيْس لديْهِ بُرٌّ مِلء صاعِ

كريمٌ أخْفتْ الدُّنْياعليْهِ فعضّتْهُ بأَنْيابِ السِّباعِ

قدِ انْقَطع الْفتى؛فسألْتُ عنْهُ فقيل الْفقْرُ عِلّةُ الانْقِطاعِ

فقمت إليه فى جُنح الدياجى وقد غطّيت وجهى بالقناعِ

فألْفيْتُ ابْن بِشْرٍ وهْو طاوٍ مع امْرأةٍ وأطْفالٍ جِياعِ

خُزَيْمةُ يشْتكى جُوعاوعُرْياً وعِكْرِمةُ غريقٌ فى المتاعِ؟
علام إذنْ سُليْمانُ انتقانى وولاّنى عَلَى تلْك البِقاعِ ؟
أناوالى الجزيرةِ، كُلُّ مالى ونفْسى لِلْجميع على المشاعِ

أسامة : أبى ، أقْنعْتَنى ، لـكِنْ لِماذا
ذهبْت إلى ابْنِ بِشْرٍ فى قِناعِ ؟

عكرمة : أأتْركُهُ يظُنُّ المالَ دِيْنا فأثْقِلَ هَمّهُ مِنْ غيْرِ داعِ ؟
على أنّى أرى المعروف جَهْراً شبيها بِالرِّياءِ وبِالخداعِ
وما بذَلَ الجميلَ مِنْ ابْتغى مِنْ
وراء جميـلِهِ أىَّ انتِفاعِ
وأُنـكِرُ ساعة المعْروفِ نفْسى
وأُنـكِرُ ما بذلْتُ مِن المساعِى
خشيتُ على خُزَيْمةأنْ يرانى فيشْعُرَ بِالْهوانِ والاتِّضاعِ
وطعم الذُّل عند الحر سمٌّ زعافٌ دونه سُمُّ الأفاعى
أرى حمل الرّواسى مُسْتطاعا وماحمْلُ الجميلِ بِمُسْتطاعِ

أسامة : ألمْ يسْألْ عن اسْمِك ؟

عكرمة : لمْ أُجِبْـــهُ إِلَيه ، وحين همّ بِالامْتِناعِ
كَنَيْتُ بِجابِرِ الْعَثَراتِ نفْسى

أسامة : رعاكَ اللهُ مِنْ شهمٍ شُجاعِ
ستقْنَعُ يا أبى ، أُمِّى بِهذا إِذا سمِعَتْهُ غايةَ الاقْتِناعِ

عكرمة : أُسامةُ، قُلْ لِأُمِّكَ ذاكَ سِرٌّ

أسامة : أبى ما كان سِرُّكَ بِالمذاعِ

(ســـتار)

الفصل الثانى

يرفع الستار عن المنظر المشار إليه بالمنظر الثانى من الفصل الأول . دار الإمارة التى يحكمها عكرمة القياض ، وتقع حوادث هذا الفصل بعد حوادث الفصل الأول بعدة شهور . « سعد وسعيد » جالسان فى البهو . الغلام « قيس » واقف بالباب .

سعد : (لقيس) قيْسُ ،

قيس : نعمْ

سعد : أيْنَ الْأَميرُ الْمُفْضِل ؟

قيس : صبْرا قليلا ، بعْد حين ينْزِلُ

سعيد : (لسعد)

هاتِ حـديث ذلِك النّهـارِ

يا سعْدُ ، أنْت جَعْبةُ الْأَخْبارِ

سعد : الْيوْم عِنْدى خبرٌ جديدُ لـكِنَّهُ يسوء) ياسعيدُ

سعيد : يسوء ! ما تفْصيلُ ذلِك الْخبرْ ؟

سعد : أما سمِعْته ؟ ظنَنْتُهُ انْتشرْ ؟

النّاسُ يهْمِسون أنّ عِكْرِمةْ

أُقيل

سعيد : حقّا ؟ كَيْف هَـذا ؟ ولِمهْ ؟

سعد : لا عِلْمَ عِنْدِى يا سعيدُ بِالسَّبَبْ

سعيد : (فى دهشة) أُقيلُ مِنْ منْصِبِهِ ؟ يا للْعجبْ !

وهلْ درى عِكْرِمةُ بِالْأمْرِ

سعد : لا يا سعيدُ ، إِنَّهُ لا يدْرى

سعيد : منْ يا تُرى حاكِمُنا الْجدِيدُ ؟

سعد : خُزَيْمة بْنُ بِشْرِ الصَّنْدِيدُ

سعيد : لقدْ سمِعْتُ أنّهُ بالشّامِ هلْ عاد مِنْها ؟

سعد : عاد مِنْ أيّامِ

مِنْ بعْدِ ماتقلّد الْوظيفةْ قلّدهُ رايتها الْخليفةْ

سعيد : لعلّ واشِياوشى بِعِكْرِمةْ عِنْدسُليمان إلى أنْ ظلمهْ

سعد : دعْنا فإِنّ الْأمْرلا يعْنينا منْ سادنا جِئْناهُ طائعينا

سعيد : نحْنُ بِطانةٌ لِكُلّ والِ نظْفرُ مِنْ يدَيْهِ بِالنّوالِ

عكرمة : (وهو داخل عليهما)

سلامى عليكُمْ

سعدوسعيد: عليْك السَّلامْ أميرَ الْجزيرةِ يابْن الْكِرامْ

سعد : تأخّرْت هذا الصّباحَ قليلاً

فهلْ كُنْت مُسْتغْرِقا فى الْمنامْ؟

عكرمة : لمْ أغْفُ إلاّ بُرْهةً لعَمْرى

هوّمْتُها بعْد صلاةِ الْفجْرِ

سعد : وما الّذى اسْتدْعى السُّهاد ياتُرى ؟

عكرمة : رُؤْيانفتْ ياسعْدُ عنْ عيْنى الْكَرى

سعدوسعيد: خيْراً

عكرمة : رأيْتُ أمْس فى الْمنامِ لَيْثاهصوراً واقِفا أمامى

أمْسكنى فى قوّةٍ وبأْسِ فانْزلقتْ عمامتى عنْ رأْسى

وكان خلْف اللّيْث أو قُدّامهْ

شخْصٌ فجاء وارْتدى الْعِمامهْ

ثم أتى اللّيثُ الهصورُ ثانياً

مُبْتسِما بعْد العُبوسِ راضِيا

مُقدِّما لى طيْلســاناً زاهِيا

سعدوسعيد: خــيْراً رأيْت أيُّها الأميرُ

عكرمة : لــكِنّنى لمْ أَدْرِ ما التَّفْسيرُ ؟

(هنا يدخل خزيمة بن بشر وكان قد ذهب إلى الشام
وعاد بعد أن قلده الخليفة ولاية الجزيرة بدل عكرمة)

قيس : ياســيِّدى ، خُزَيْمَةُ بِالْبــابِ

عكرمة : أدْخِلْه ياحاجِبُ بالتَّرْحابِ

خزيمة :(وهو يدخل) أُهْدى إليْكُمْ سادتى سلامى

الجميع : يا مرْحبا بِالْبطلِ الْهُمامِ

عكرمة : (لخزيمة) هلْ كُنْتَ حقّا فى بِلادِ الشّامِ ؟

خزيمة : نعمْ ولــكِنْ لم يطُلْ مُقامى

عكرمة :متى عُدْت مِنْ هذِهِ الأرْبُعِ ؟

خزيمة : قَدِمْتُ الْجزيرة مِنْ أربَعِ

عكرمة : وكيْف سُليمانُ ؟ كيْف دِمَشْقُ ؟

عكرمة : (ولقد سكت خزيمة فى ارتباك)

لمـــاذا سكتَّ ؟ ألم تسْمعِ ؟

خزيمة : (فى خجل وارتباك)

سُليْمانُ خطَّ إليْك كتابا وأرْسل هذا الْـكِتابَ معى

عكرمة : (فى دهشة)

كِتابٌ ؟

خزيمة : نعمْ

عكرمة: أينْ هذا الْـكِتابْ ؟ تفضَّلْ بهِ يا رفيع الجْنابْ

(يتناول عكرمة الـكتاب ويتلوه فيجد مضمونه عزله
وتولية خزيمة مكانه فيجزع ثم يقول فى تأثر)

عكرمة : ربَّاهُ ! هل أنا فى منامى أحْلُمُ ؟

قُوموا اقرَءوا هذا الخطاب وَترْجِمُوا

وَيْحى ! أميرُ المُؤمنِين أقالنى أمرٌ بهِ سبق القضاء المُبْرَمُ

هذا منَامى قد تأوَّل عاجلا وَضح الخفاء إذَنْ وَبانَ المبْهمُ

سمْعاً أميرَ المؤْمنينَ وَطاعة إنى لِأَمْرِكَ مُذْعِنٌ مُسْتَسْلِمُ

المُلْكُ لِلرَّحْمٰنِ جلَّ جلالهُ يُعطِى المَهَيْمنُ مَن يشاءُ وَيحْرِمُ

ماذا جنيتُ؟ لعلَّ قوماً بى وشَوْا ... عِندَ الخليفةِ ؛ إنهُ لا يظلِمُ
إنى لِعَهْدِ بنى أُميَّةَ حافِظٌ ... أُبْنيهِمُ إنْ كان غيْرِى يهْدِمُ
كلاَّ لعمْرِى ما هممْتُ بريبَةٍ ... وَاللهُ يسْمعُ ما أَقُولُ وَيعلمُ

(ثم ينحنى عن مكانه ويأخذ بيد خزيمة
ويجلسه على كرسيه ويسترسل فى إنشاده)

قُم يا خُزَيْمَةُ ، أنْتَ أنت أميرُنَا ... هذا مكانُكَ ، كلنا لَكَ خُدَّمُ
أصبحْتَ أنت عَلَى الجزيرةِ والِياً ... تقْضى بما نزل الكِتابُ وَتحكمُ
هذا فراغى ، مَنْ سِواكَ يَسُدُّهُ؟ ... إن كُنْتُ ذا حزمٍ فإنكَ أحْزَمُ
تَاللهِ لا آسى لشىءٍ فاتنى ... لكِنَّ طعْمَ الظّلمِ فى الْفَمِ علقَمُ

خزيمة : اللهُ يعْلمُ أننى يا عِكْرِمُ ... مِمَّا أصابكَ جازعٌ مُتَأَلِّمُ
لُذْ يا أخى بالصَّبر ، مالكَ وَاقفاً؟

عكرمة: أنا راحِلٌ مِنى السّلامُ عليكمُ

سعد : مابالُ عِكرِمةٍ تَسَلَّلَ هارباً؟

خزيمة: إنى عليْهِ لمُشْفِقٌ متألِّمُ

سعد : إن كان غاب فأنْتَ زاهٍ مُشْرِقٌ

سعيد : فُزْنَا بِدينارٍ وَأفلت دِرْهمُ

سـعد : دمْتُ الإمارةِ يا خُزَيمةُ مشرِقٌ

سعيد : وَفمُ الجزيرة ضاحِكٌ مُتَبسِّمُ

سـعد : ما كان غيرُكَ أنت يصْلُحُ وَالِياً

سعيد : وَأَنا عَلَى ما قال سعْدٌ أُقْسِمُ

خزيمة : (لعمرو وقد كان بالباب)

يا عمْرُو ، قُمْ تَسَلَّمِ الخِزانَةْ أعْهَدُ فيك الصِّدق وَالأمانةْ

عمرو: سَمْعاً وَطاعةً لسيِّدى الأجلّ سألْتُ خالِقى لهُ طولَ الأجلْ

سعد : (لخزيمة بعد خروج عمرو)

خُزَيْمُ لم تُتْمِمْ لنَا الكلاما ماذا فعلْتَ إذْ نزلْتَ الشَّاما ؟

خزيمة: كانت لعمْرى رِحْلَةً لَطِيفَةْ إذْ خَصَّنِى بعطْفِهِ الخَلِيفَةْ

لـكنَّهُ أَسْرَفَ فى الْعِتَابِ لأَنَّنِى أَسْرَفتُ فى غِيَابِى

قلتُ لهُ : لاشىْء عنْكَ يمنعُ لـكِنَّهُ الْفَقْرُ الشَّدِيدُ المُدْقِعُ

ثمَّ قَصَصْتُ قِصَّةَ افْتِقَارِى وَكَيف أننى لزمتُ دَارِى

وكيف لم أعْثُر على صديقِ يُعِينُنى بِمالِهِ فى الضِّيقِ

حتَّى أتى ذِكْرُ الْفتى المُقنَّعِ وذِكْرُ صُنْعِ ذلِكَ الْفتى معى

سعد : منْ ذا؟ أتعْنى جابِرَ العثْراتِ

خزيمة: نعمْ نعمْ أقْصِدُهُ بالذّاتِ

فعِنْدها اعْترى (سُلَيمان) العجبْ

واهتزّ فوق عرشِهِ من الطّرَبْ

وقال لى: أُريدُ هذا الشَّخْصا لـكِنّهُ لُغْزٌ علىّ استعْصى

خزيمة: (بعد سكتة قصيرة)

و بعْدها أسدى إلىّ مكْرُمهْ كُبْرى فولّانى مكان عِكْرِمهْ

سعد: وهلْ بحثْت يافتى الفتْيانِ عنْ جابرِ العثْراتِ فى البُلْدانِ؟

خزيمة: هيْهات لم أجدْهُ فى مكانِ الحقُّ أنَّ أمرهُ أعْيانى

سعيد: كأنّهُ نجْمٌ أغرُّ أو ملَكْ هوى وعاد ثانياً إلى الفلَكْ

عمرو: (يدخل ثائراً)

مولاى عجْزٌ فى الخِزانةِ فادِحُ

خزيمة: عجْزٌ! لعمْرى ذاك أمرٌ فاضِحُ

قمْ نادِ عِكْرِمةَ سريعاً نادِهِ

سعد: (بعد خروج عمرو)

هو وحْدهُ المسْئولُ

سعيد : أمرٌ وَاضِحُ

خزيمة : (وهو ثائر)

عجزٌ بِمالِ الْمُسْلِمينا ؟ هذا لعمْرى لنْ يكونا
إنْ لمْ يُسَدَّد عاجِلاً أنْزَلْتُ عِكْرِمة السُّجونا
قد كُنْتُ مغْروراً غدا ة ظنَنْتُهُ رجُلاً أمينا
ويْحى ! أأجْهلُهُ وبِهْ رفُهُ أميرُ الْمُؤْمِنينا ؟

عكرمة : (وقد حضر)

نعمْ نعمْ ! ماذا يُرِيدُ الْوالى ؟
هل جدَّ أمرٌ يقْتضى سُؤالى

خزيمة : (لعمرو أمام عكرمة)

كمْ ذلِكَ الْعَجْزُ ؟

عمرو : كثيرٌ جِدًّا الْعَجْزُ مبلغٌ يفوقُ الْعدَّا
ألْفٌ، وَألْفٌ، ثم ألْفٌ مُتْبَعَهْ مِن الدَّنِير بِألْفِ ؛ أربعهْ

عكرمة : (فى ارتباك)

ماذا أقولُ ؟ أرى لِسانى عاجِزاً
فكأنما هُو موثَقٌ بِعِقَالِ

الْعجزُ أمرٌ لا محالة ثابتٌ إِنِّى لَمُعترِفٌ بِغَيْرِ جِدَالِ

خزيمة : إنَّ اعترافك لا يُقيلكَ مِن يدى

أَيْنَ النُّقودُ ؟ أُرِيدُها فِي الْحَالِ

عكرمة : أقْسَمْتُ مالى ياخُزيمةطاقةٌ أبداً بهذا ، إنّ بيْتى خالِ

أقْسَمْتُ لم آخذْ لِنَفْسى دِرهماً

مِمَّا اتُّهِمْتُ بِهِ ولا لِعِيَالِى

لا تحسبَنّى يا خزيْمةُ فى غِنًى

إِنَّى لَفى بُؤسٍ وَرِقَّةِ حالِ

خزيمة : الْمالُ مالُ الْمُسلمين جميعِهم

هيْهات أنْزِلُ مِنْهُ عن مِثْقالِ

عكرمة : أظننت أَنِّى ياخزيْمةخائنٌ ؟ هذا لعمرى لم يمُرَّ ببالى

هبْنى اقْترضْتُ الْمال إذ أنا معسرٌ

أفلا تمُنُّ عَلَىَّ بالإِمهالِ ؟

قدْ كُنْتُ أنْوى سدَّهُ لكِنَّنى

فوجِئْتُ بِالْإِقْصَاءِ عن أعْمالِى

دعنى على طولِ الزَّمانِ أرُدُّهُ
واللهُ ذو كرمٍ وذو أفْضال

خزيمة : (يقول هذا بينما عمرو يقوم بالتنفيذ)

كَلَّا لعمْرى لستَ تُفْلِتُ مِن يدى
هيّا ائْتِهِ يا عَمْرُو بِالْأَغْلالِ
اطْرحْهُ فوق الْأَرْضِ، شُدَّ وَثاقه
أَدْخِلْهُ سِجناً مُحْكَمَ الْأَقْفال
هذا جزاء فتى يخونُ اللهَ فى أموالِهِ؛ ثمنُ الخِيانةِ غالِ!

(ســـــتار)

الفصل الثالث

يرفع الستار عن بهو بدار الإمارة التى يقيم بها خزيمة .
يتصل بالبهو سجن يؤوى عكرمة ، ليس هناك إلا الغلام عمرو ، ويظهر على الباب أسامة بن عكرمة قادما لزيارة أبيه .

أسامة : (فى خضوع)

أيا عمْرُو

عمرو : (فى غلظة) ويْحك ! ماذا تُريدُ ؟

أسامة : أتسْمحُ لى أنْ أرى والِدى ؟

عمرو : (فى تهكم)

أجِئْت تزورُ أباك الهُمامَ
أخا الْفضْلِ والشّرفِ الزائِدِ ؟

أسامة : كأنّك تسْخرُ ياعمْرُو منْهُ لِىَ اللهُ مِنْ قلْبِك الْجاحِدِ

عمرو : أنا جاحِدٌ ! هلْ جحدْتُ النُّقودَ ؟
أُعيذُك مِنّ مُقْلةِ الْحاسِدِ

أسامة : وماذا جناهُ أبى فأطلْتَ وأسْرفت فى لفْظك البارد؟

عمرو : هُناك الخزانة سلْها تُجبْك ألمْ تدرِ ؟ياللك مِنْ مارِدِ !

أسامة : وأين أبى ؟

عمرو : هاهُنا ، اصْبِرْ قليلا أجِئْك بِعِكْرِمةَ الزّاهِدِ

وسوْف ترى القيْدفى رِجْلِهِ كَخلْخالِ غانِيَةٍ ناهِدِ

(عمرو يذهب ليجىء بعكرمة من سجنه وفى أثناء سيره
يقف عندمخبأ « برافان » أعد لاختبائه ويقول :)

عمرو : هُنا هُنا ؛ لابُدَّ لى أنْ أختبى

مُسْتمِعاً حديثَ الابن والأبِ

لعلّنى مِنْ هذِهِ الأقْوالِ أعْرِفُ أيْن مخْبأُ الأمْوالِ؟

عمرو : (بعد أن يأتى بعكرمة ساخراً)

هلمّا واشْبعا الآنا مُعانقةً وأحْضانا

سأرْحلُ عنْكما لا تخْ شيا فى الدّارِ إنْسانا

فبوحا بالْغرام إذنْ وبُثّا الشّوْق ألْحانا

ولكنْ لا تُطِيلاَ ، إنّ موْعِد سيِّدى حانا

(ينصرف عمرو إلى المخبأ فتبدأ مناجاة أسامة لأبيه :)

أسامة : ماذا جنيْتَ أبى فبِتَّ سجينا ؟

عكرمة : أوما عرفْتَ ؟ أبوك صارخئونا

أسامة : يا لَلكرامةِ ! والإباءِ لِماجِدٍ !

حرٍّ عزيزِ الجار بات مَهينا

أنا ما عهِدْتُك خائِناً لا بلْ أبًا

لِلْكُلّ بَرًّا بِالجميعِ حنونا

أهُناك عجزٌ فى الخراجِ ؟

عكرمة : نعمْ

أسامة : إذنْ

يا والدِى فالقوْمُ مَعْذورونا

عكرمة : هِى زَلّةٌ لكِنْ يُخفِّفُ وقْعَها

أنّا أناسٌ غيْرُ معْصومينا

ولقدْ أخذْتُ المال أبْغى ردّه

لوْ أمْهلونى يا أُسامةُ حينا

ما كان ظنّى أنْ أُقالَ فجُاءةً

بلْ كنْتُ آمل أنْ أظلّ سنينا

أسامة : والْمالُ أيْن مضى ؟ عهِدْتُك حارِساً
يقِظًا وحِصْناً لِلْخراجِ حصينا

عكرمة : تِلْك النُّقودُ بِها أعنْتُ خُزَيْمةً
إِذْ لمْ يجدْ بيْن الرِّجالِ مُعينا
أنسيتَ ليلةَ أنْ خرجْتُ مُقنَّعا
وجعلْتَ تبْحثُ عن أبيك حزينا ؟

أسامة : (فى دهشة شديدة)

ويْحى ! إِذنْ فالْمالُ عِنْد خُزَيْمةٍ
وهُو الْمدينُ بِهِ ولسْتَ مَدينا
لِمَ لَمْ تقُلْ هذا لهُ ؟

عكرمة : كلّا ولوْ
أضْبحتُ فى جوْفِ الضّريح دفينا

أسامة : عجبا ! أمَنْ أخـذ النُّقود مُنعَّمٌ
يشْدو وأنْت هُنا تئِنُّ أنينا ؟

عكرمة : عذرًا لهُ ما كان إلّا واليًا
أمسى بمالِ المسلمين ضنينا

أسامة : (فى انفعال)

دعْنى أُبيّنُ لابنِ بشرٍ مَنْ أبى ؟
وأُريهِ أيُّكما يكونُ أمينا ؟

عكرمة : كلاّ ، أنطلُبُ منْهُ أجْر صنيعِنا
هَلْ نَحْنُ بالإحْسَان مُتَّجِرونا ؟
إنْ كان ذاك ، غدا ابنُ بِشْرٍ رابحا
وغدا أبوك الخاسرَ المغْبونا

أسامة : كلاّ لعمرى ما خسِرْتَ وإنّما
هى حُرْمةٌ حفِظَتْ وعِرْضٌ صِينا
دعْنى أُذيعُ السِّر إنّ لِوالِدى
عِرْضا بِهذا السِّرِّ بات رهينا
لوْلا الكرامةُ ماهممْتُ بكَشْفِهِ
إنّى لأَعْتَبِرُ الكرامة دينـــا

عكرمة : لا يا بنَيّ أراك قدْ أسرفْت فى
طَيْشِ الشّبَابِ، ألا تكونُ رزينا؟
أيُقالُ : عِكْرِمةُ وهتْ عزَماتُه
أيَظُنُّ ويْحك ! بى خُزيمةُ لينا ؟
أيُقالُ : ماوامى ابنَ بِشْرٍ حِسْبَةً
لكِنْ تقاضى الأَجْرِ مِنْهُ ثمينا ؟
أسامة : دعْ يا أبى تِلْك المخاوف وليُقُلْ
أهْلُ الجَزِيرةِ عنْكَ ما يبْغونا
أفلاذكرْت بنيك؟ يالكَ منْ أب
ينْسى بناتٍ خلْفَهُ وبنينا !
أهْوِنْ علىّ بِأَنْ أموت ولا أرى
أُمّى تنوحُ وَإخْوتى يبْكونا !
عكرمة : ماذا تقول ؟ دعِ البنين وذكْرَهُمْ
حرّكْتَ آلاما وهِجْتَ شُجونا

لا دَرَّ دَرُّ أولئِك الابْنَاءِ إنْ
كانوا على آبائهمْ يَجْنُونا
هيْهات ، إنِّى لوْ أردْتُ القوْلَ لَمْ
أُفْصِحْ ولمْ أجِدْ اللِّسان مُبِينا
قُمْ يا أُسَامَةُ ، وَارْعَ عَهْد أبيك لا
تَنْقُضْهُ ، وَاحْفَظْ سِرَّهُ الْمَكْنُونَا
سِجْنِي أحبُّ إلىَّ مِمَّا تَشْتَهى
وَلَوَ اننّى فيهِ مكثْتُ قُرُونا

(ثم ينصرف إلى سجنه فيقول أسامة باكيا :)

سَمْعا وَإذْعانًا لِأَمْرِكَ يا أبى
سيظلُّ سِرُّكَ فى الحشا مَخْزُونا

(ثم ينصرف أسامة فيخرج عمرو قائلا فى دهشة تشبه الجنون :)

تِلْكَ النُّقُودُ بِهَا أَعَنْتُ خُزَيْمَة
إذْ لَمْ يَجِدْ بَيْنَ الرِّجَالِ مُعِينا
أنسيت ليْلة أنْ خرجْتُ مُقَنَّعًا ؟
وجعلْتَ تبْحثُ عن أبيك حزينا

وَيْحِي ! أهذا جابرُ الْعَثَرَاتِ أمْ

من ذاك ؟ أُوشِكُ أنْ أُجَنَّ جُنُونا

(هنا يدخل خزيمة فيقول :)

ماذا جرى حَتَّى تُجَنّ جُنونا ؟

ماذا تقولُ ؟ أَفِقْ كفاك مُجُونا

عمرو : (فى شبه جنون)

مَوْلَاى ، يا لَلذُّلِّ ! يا للعارِ يالَلْفَضِيحَةِ والحديثِ السَّارِى

أنكُونُ يامَوْلَاىَ أَسْرَى بِرِّهِ ويبيتُ مَسْجُونًا حليفَ إسارِ؟

عجبى عَلَيْهِ ! يَبِيتُ تحْتَ عُيُونِنا

ونخالهُ سِرًّا مِنَ الْأَسْرَارِ

عِلْمٌ كَحُلْمٍ فى الكَرَى قوموا اسمعوا

وتحدَّثوا يا معشر السُّمارِ

هذا لَعَمْرِى «جَابِرُ الْعَثَرَاتِ» قَدْ

عَثَرَتْ بِهِ الْأَيَّامُ أىَّ عِثَارِ

خزعة : (فى دهشة)

مَنْ جَابِرُ العثراتِ وَيْحك يافتى !

فى أىِّ دارٍ أَمْ بِأَىِّ قرارِ ؟

فى الهِنْدِ؟أَمْ فِى الصِّينِ وَيْحك نازِلٌ؟

عمرو : لا ، لَيْسَ بَيْنَكما سِوَى أَشْبَارِ

ما جابِرُ العثراتِ إلاّ عِكْرِمٌ

خزعة : (فى دهشة شديدة)

مِنْ أَيْنَ جِئْتَ بِهذِهِ الأَخْبَارِ ؟

عمرو :

أَفْضَى بِذَلِكَ لِابْنِهِ فَسَمِعْتُهُ

إِذْ كُنْتُ مُخْتَبِئاً وَرَاءَ سِتارِ

خزعة : (بعد برهة تفكير)

وَيْحِى ! أَلَمْ أُفْطِنْ لقيمةِ عَجْزِهِ ؟

الْعَجْزُ كالإحسانِ فِى الْمِقْدَارِ

خزعة : (منفعلا)

قُمْ هاتِ عِكْرِمةَ وَحُلّ وَثاقَه
يا عَمْرُو لا تُبْطِيءْ بَدَارِ ! بَدَارِ !

خزعة : (يناجى نفسه بعد خروج عمرو)

رَبَّاهُ كَيْف أُقابِلُ الرَّجُل الَّذِى
قابلْتُ نِعْمتَه بِكُلِّ جُحودِ
أَضْفَى عَلَىَّ صنيعَهُ فلبِسْتُهُ
وَتركتُه فِى السِّجْنِ رَهْنَ قُيُودِ
طَوَّقْتُ جِيد عُكَيْرِمٍ بِسَلاسِلٍ
لكنَّهُ بالْفَضْلِ طَوَّقَ جِيدِى
ما كُنْتُ فِى رَدِّ الجميلِ بماجِدٍ
شَهْمٍ وَلَا بِفَتًى كريمِ جُدودِ
قَدْ باتَ يُثْقِلُ كاهِلِى مَعْرُوفُهُ
فكأنّهُ مِنْ جَنْدَلٍ وحديدِ
هَلّا تَفَتَّحَت السَّماء فأخْتَفِى
أَوْشُقَّ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أُخْدُودِ ؟

قولوا لِعِكْرِمةٍ ذبحْتَ خُزَيْمَةً
ذبْحَ النِّياقِ بِحَدِّ سَيْفِ الْجُودِ
وتركتَه يَحْيَا بَقِيَّـــةَ عُمْرِهِ
فِي زيِّ أَحْرَارٍ وَذُلِّ عَبِيدِ

عكرمة : (يدخل طليقاً)

عجباً خُزَيْمَةُ ! فيم تُطْلِقُ سَاقِي ؟
هَلْ جَدَّ مَا يَدعُو إِلَى إِطْلَاقِي ؟

خزيمة : (وهو يقبل يده وقدمه)

دَعْنِي أُقَبِّـلْ هٰذِهِ الْقَدَمَ الَّتِي
تَسْعَى إلى العـافِينَ بالأرزاقِ
دَعْنِي أُقَبِّلْ هٰذِهِ الْـكَفَّ الَّتِي
مَنَّتْ عليَّ فـكُوفِئَتْ بوَثاقِ
دَاوَى جِراحِي عِكْرِمٌ وَجَرَحْتُهُ
شتَّانَ بَيْنَ خَلاقِهِ وخلاقِي

عكرمة : (فى دهشة)

ماذا جرى ؟

خزيمة : أو لستَ تعرِفُ ما جرى ؟

كمْ كُنتُ أبحثُ عنك فى الآفاقِ

يا جابِرَ العثراتِ قدْ برِح الخفا

فاظهرْ ظُهور البدْرِ بعْد مَحاقِ

عكرمة : مِمّنْ عرفْت السِّرّ إنّى مُطْبِقٌ

فكيّ عليْهِ أيّما إطْباقِ ؟

خزيمة : فيم التّستُّرُ إنّها شَمْسُ الضُّحى

لاغيْم يحْجُبُها عنِ الأحْداقِ

والْفضْلُ مثْلُ الطّيبِ ينْفحُ ريحهُ

فى الجوّ مهما صين فِى الأحْقاقِ

عكرمة : لابأْس فليغْفِرْ لنا الخلّاقُ . ما

أدْنَى وأوْسعَ رحْمةَ الخلّاق !

خزيمة : (لعمرو)

يا عمْرو هاتِ الْقيْد قيِّدْنى بِهِ

لا تُعْفِنى ضيِّقْ علىّ خناقى

قَيِّدْ بِهِ قدمَىَّ ثُمَّ يدَىَّ لا

يَأْخُذْكَ بى شَىْء مِن الإِشْفَاقِ

عكرمة : (وعمرو يقيده)

ماذا تُحَاوِلُ ؟

خزيمة : أنْ أُلاقِىَ بَعْضَ ما

قَدْ كُنْت فى ذلِّ الإِسارِ تُلاقى

دعْنِى أُكابِدُ فى ظلامِ السِّجْنِ ما

كابدْتَ مِنْ عنتٍ وَمِنْ إِرْهاقِ

دَعْنِى أَجُوعُ كما تركْتُكَ جائِعاً

وَأَذُوقُ طَعْمَ الهونِ أىَّ مَذَاقِ

عكرمة : (وهو يأخذ القيود)

أُقْسَمْتُ لَسْتَ بِفَاعِلٍ يَاعَمْرُو لا
تَفْعَلْ ، بَلْ ارْمِ بِهذه الْأَطْوَاق

خزيمة : أصفحت عَنّى ؟

عكرمة : كلَّ صَفْحٍ

خزيمة : إننى
عَبْدٌ مَنَنْتُ عَلَيْهِ بِالإِعْتاقِ

خزيمة لعمرو :

يا عمْرُو قُمْ فاذْهبْ بِعِكْـ رِمةٍ إلى الْحمّامِ
أَلْبِسْهُ حُلّة سُنْدُسٍ مِنْ صنْعةِ الْأعْجامِ

عمرو : إِنى لهُ ياسـيِّدى مِنْ جُمْلةِ الْخُدّامِ

خزيمة : قدِّمْ لهُ يا عمْرُو أشْـ هى مشْربٍ وطعامِ
أفلا نُجازى جابِرَ الْـ معْراتِ بِالإِكْرام ؟

عمرو : إِنِّى لهُ ياسـيِّدى مِنْ جُمْلةِ الْخُدّامِ

خزيمة : لاتنْس أنّا راحِـلا نِ إلى رُبوعِ الشّامِ
فاحْمِلْهُ فوْق مُطهّمٍ أعْدى مِن الآرامِ

عمرو : إنّى لهُ ياسيّدى مِنْ جُمْلةِ الخُدّامِ

عكرمة : ماذا تقولُ لِمِ الرّحيـ ـلُ إلى رُبوعِ الشّامِ ؟

خزيمة : أمْرُ الخليفةِ والخلي ـفةُ نافِذُ الأحْكامِ

عكرمة : مِنْ أيْنَ يدْرى قِصّتى؟

خزيمة : جاءتْ خِلال كلامى

حدّثْتُهُ بالأمْسِ عنْ هذا الخُلاقِ السّامى

فإذا بِهِ يهْتزُّ هِزّ ـة مُنْتشٍ بِمُدامِ

وتركْتُهُ إذ ذاك وهْـ ـو إلى لِقائِك ظامِ

عكرمة : (مبتسما)

لِلّهِ دَرُّكَ ! يا خُزَيْـ ـمَةُ مِنْ فتى نمّامِ

عمرو : (لعكرمة)

يهْنيكَ صِرْتَ لدى الخلـ ـيفةِ موْضِعَ الإكْرامِ

ستفوزُ مِنْهُ بالنّوا لِ غداً وبالإنْعامِ

فاذْكُرْ نصيبى حينَ تر جعُ ثانياً بسلامِ

ستار

الفصل الرابع

يرفع الستار عن بهو فى قصر الخليفة سليمان بن عبد الملك بدمشق . أربعة من حاشية الخليفة يجلسون بمقعده . مقعد الخليفة شاغر . الحاجب واقف بالباب .

أحد الحاشية : أَلَمْ يَنْزِلْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينْ ؟

ثان : تَرَوْ فسوْف ينْزِلُ بعْد حينْ

ثالث : (وقد رأى الخليفة)

لقدْ لاح مثلَ البدْرِ وهْو تمامُ

الخليفة : سلامٌ على قوْمى

الجميع : عليْك سلامُ

أحد الحاشية : سُلَيْمانُ ، أنْت الأميرُ الهِجانْ

ثان : وأنْت أجلّ مُلوكِ الزّمانْ

ثالث : سُلَيْمانُ ، إنّك أفْضلُ حَيّ

رابع : على الأرْضِ تسْعى بِهِ قدمانْ

الحاجب: أميرَ المُؤْمِنين هُنا مُغنّ
رخيمُ الصَّوْتِ يلْتمِسُ الدُّخولا

الخليفة : مُغنٍّ ؟ دعْهُ يدْخلْ ، رُبَّ لحنٍ
رقيقٍ أسْعد النَّفْس الملولا
إذا خلتِ الحياةُ من الأغانى
أراها أصْبحتْ عِبْئاً ثقيلا

الخليفة : (وقد دخل المغنى)
تعال وحرِّكْ الداء الدّفينا

أحدالحاشية : وأشْعِل فى جوانِحِنا الحنينا

(المغنى يغنى :)
جَفَنُهُ سالِبٌ وقلْبى سليبُ
من مُجيرى مِمّا جناهُ الحبيبُ ؟
فاتِنٌ لمْ يطِشْ لِعيْنيْهِ سهْمٌ
كُلّما راش مُقْلتيْه يُصيبُ

أحد الحاشية : أعِدْ

ثان : أعِدْ

ثالث : صوتٌ حسنْ

رابع : يا بُلْبُلا على فَنَنْ

المغنى : بات يجْنى عَلَىَّ وهْو برىء

وإليْهِ ، مِنْ غيْرِ ذنْبٍ ، أتوبُ

أنْت نارى وجنّتى يا حبيبى

أنْت دائى ، وأنْت أنْت الطّبيبُ

أحد الحاشية : أعِـدْ

ثان : أعِـدْ

ثالث : للهِ أنْتا

رابع : أشْبهْت طيْر الأَيْكِ صوْتا

المغنى : كمْ كتمْتُ الهْوى فنمّ عليْهِ

جسدٌ ناحِلٌ ودمْعٌ صبيبُ

نحْنُ قوْمٌ إذا رأيْنا عشِقْنا

فلنا أعْينٌ وفينا قُلوبُ

أحد الحاشية : أجدْتَ

ثان : جِدًّا أيُّهـا المُغنِّى

ثالث : جَمَعْتَ بيْن رِقّةٍ وفنٍّ

رابع : هذا مُغَنٍّ لهُ أَلْحانُ أَطْيَارِ

الخليفة : أَعْطُوهُ مِنْ بَيْتِ مالى أَلْف دِينارِ

الحاجب : (بعد خروج المغنى)

شاعِرٌ ياسيِّدِى يَرْجُو الدُّخُول

الخليفة : أَدْخِلِ الشَّاعِر نَسْمَعْ مايقولْ

الشاعر : (بعد أن يدخل)

خليفةَ اللهِ ، شملُ الدِّينِ مُجْتَمِعُ

عَلَى يَدَيْكَ فلا زَيْغٌ ولا بِدَعُ

الْعُرْبُ وَالْعُجْمُ قَدْ أَلْقَوْا أَزِمَّتَهُمْ

إليْكَ، إنْ تَدْعُ للبَوّاءِ، أَوْ تَقُلْ سَمِعُوا

بقيت لِلشَّامِ بلْ لِلارْضِ قاطِبَةً

فأنْتَ كالْغَيْثِ فيهِ الرِّىُّ وَالشِّبَعُ

ألسْتَ مِنْ مَعْشَرٍ كالشُّهْبِ أَوْجُهُهُمْ

فى الجاهِلِيَّةِ وَالإِسْلَامِ قَدْ سَطَعوا؟

بنو أُمَيَّة سنّوا المَكْرُمَاتِ لنا
يمشُونَ والنَّاسُ فِي الدُّنْيَا لَهُمْ تَبَعُ
هُمْ سَادَةُ الأرضِ لاقَطْعٌ لِمَا وَصَلوا
مِنَ الأمورِ ولا وصْلٌ لِمَا قَطَعُوا
توارثُوا المُلكَ أطفالاً كأنَّهُمُو
فوقَ العُرُوشِ، عُرُوشِ المُلْكِ قَدْ وُضعوا

أحد الحاشية : ما قالهُ الشّاعِرُ حَقْ
ثان : أَقْسَمْتُ أَنَّهُ صَدَقْ
الخليفة : أجَدْتَ
الشاعر : جُدْتَ فجادَتْ فيكَ أشعارى
الخليفة : أعْطُوهُ مِنْ بَيْتِ مالى أَلْفَ دِينارِ

(هنا تسمع جلبة جماعة يقبضون على رجل شيعي ، تسمع أصواتهم من الخارج)

الجماعة : اضْرِبوهُ أَوْثِقُوهُ وَإِلَى الْوَالِي خُذُوهُ
الشيعى : ماذا جَنَيْتُ مَعْشر الأوْغادِ ؟
الجماعة : هَيَّا بِهِ هَيَّا إِلَى الْجَلّادِ

الخليفة : (والرجل داخل عليه موثقاً)

ماذا جرَى ماخطْبُ هذا الرَّجُلِ؟

الحاجب : هذا فتى يَدْعو إلَى نَسْلِ عَلِي

يَدْعُو إلى الخُرُوجِ والعِصْيَانِ

على سَلَاطِين بنى مَرْوَان

أحدالحاشية: هذا مجورٌ

ثان : بالغٌ

ثالث : فَلْيُقْتَل

رابع : إنْ تَتْرُكُوا أمْرَ الفتى يستَفْحِلِ

الخليفة : دعونا نَسْمعِ الرَّجُلا

أهٰذَا مِنْك قَدْ حَصُلا ؟

الضيعى : (فى غير ا كتراث)

أنا أدْعُو لِاهْلِ بَيْتِ النبيِّ

لَسْتُ أرْضَى عن حُكْمِكَ الأُمويِّ

فاقْتُلُونِي إنْ شِئْتُمو أوْ دَعُونى

أنَا صَبٌّ بِحُبِّ آلِ عَلِيّ

فَعَلِيٌّ خَيْرُ الْوَرَى وَبَنُوه
مِنْكَ أَوْلَى بِذَلِكَ الْكُرْسِيّ
إِنَّ لِي مَبْدأً أَعِيشُ عليهِ
أَوْ أُلاَقِي الرَّدى بِعَزْمٍ قَوِيّ

أحد الحاشية : تِلْكَ لَعَمْرِى غايةُ الوقاحةْ

الخليفة : كلا لَعَمْرِى بَلْ هِىَ الصَّرَاحَةْ

الخليفة : (للشيعى)

لِلّهِ دَرُّكَ ! هذا وَجْهُ مِغْوَارِ
إِعْدَامُ مِثْلِكَ عارٌ أَيُّمَا عارِ
حُلّوا وَثَاقَ الْفَتَى حَيّوا صراحتَهُ
أَعْطُوهُ مِنْ بَيْتِ مالى أَلْفَ دِينارِ

الشيعى : (وهو يقبل يد الخليفة)

لِلّهِ أَنْتَ مِنْ فتى سَمْحِ
كَسَبْتنى بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ

الخليفة : أَعْطَيْتُهُ أَلْفاً على قَدْحِهِ
فَلْيُعْطَ أَلْفَيْنِ عَلَى الْمَدْحِ

الخليفة : (بعد خروج الشيعى)

أُدَعِّمُ عرْشَ المُلْكِ باللّينِ إِننى
أرَى اللّين أمضَى فى الرّقاب من السيفِ
وَمائلَ عرْشَ المُلْكِ وَهْوَ مُوَطَّدٌ
سوى ملِكٍ ساسَ الرّعية بالخوفِ

(هنا يصل عكرمة وخزيمة ، عكرمة ينتظر وخزيمة يتهيأ للدخول) :

الحاجب : مولاى جاء حاكِمُ الجزيرَةْ
الخليفـة : لا بُدّ مِنْ حادثةٍ خطيرَةْ
« ادخُل
خزيمـة : سـلامُ اللهِ يا إمامُ
الخليفـة : عليْكَ يا خزَيمـةُ السـلامُ
« هلْ لِلمَجِيءِ يابْنَ بِشْرٍ مِن سببْ ؟
خزيمـة : جِئتُ لأمْرٍ عجبٍ أىِّ عجبْ
الخليفـة : ما ذاكَ هاتِ لنَا حديثَك هاتِ ؟
خُزَيمـة : إنى ظفِرتُ بِجابِرِ العـثَرَاتِ

الخليفـة : حقاً ظَفِرْتَ به أَإِنْسٌ يا تَرَى
أَمْ ذاكَ بعضُ مَلَائِكِ الجنَّاتِ ؟

خزيمـة : وَالٍ كبيرٌ مِن وُلَاتِك سيّدى

الخليفـة : أتقولُ وَالٍ مِنْ كبارِ وُلاتى ؟

الخليفـة : مَن ذاكَ ؟

خزيمـة : عِكْرِمةٌ

الخليفـة : (بعد أن يطرق قليلا)
إذنْ ما بالهُ
بالأمْس كانت مِنه بعْضُ هِناتِ ؟

خزيمـة : ما كان غيرَ ضَحِيَّةٍ لِوشـايةٍ
إنّ الوشايةَ أَصْـلُ كلّ أَذَاةِ

الخليفـة : هبْهُ هفا ، تلك المرُوءَةُ وَحْدها
تمْحُو لهُ ألْفاً منَ الهفـوَاتِ

خزيمـة : أرضيتَ عنه ؟

الخليفـة : غايةَ الرّضوانِ

خزيمة : (ينادى عكرمة)

ادخُـلْ إِذَن يا عكْرِمًا بأمانِ

عكرمة : (وهو داخل)

سلاماً يا أمير المؤْمِنينا سـلاماً يا رِفاقى أجمعينا

الخليفـة : سـلاماً جابرَ العثراتِ أقبِـلْ

لقد أوْلَيْتُـك الصَّفْحَ المبينا

أرَى الْـكُرَماء فى الدّنيا كثِيراً

وَمِثْلُكَ أنتَ يندُرُ أنْ يكونا

بمثْلِكَ سَادتِ الْعُرْبُ الْبَوادى

عَلَى الأقطار وَامتَلـكوا الحُصونا

همُو لم يُرْهِفُوا الْقُضُب المَوَاضى

وَلـكنْ أرهفوا الخُلق المتِينا

أولئـكَ دوْلتى وَبِهم أباهِى

فمَنْ لى بالْقَياصرِ ينْظرُونا ؟

عكرمة : امـيرَ المؤمِنـين سـلِمتَ إنّا

لخطـو ملوكِـنا مُتَتبّعونا

أخـذْنا عنهُمو بِيض الأيادى
هُمُو عِلمُوا السماح وَعلّمـونا
وَلَسْنا حين نَصْطَنع المعالى عَلَى أربابهـا متَطفلِينا
وَلـكنا أخذناها تُرَاثاً كذا آباؤنا قد عوّدونا
هُمُو غرسوا فإنْ نفعلْ جميـلاً
فذلك طلْعُ ما غرَسوهُ فينـا
فلا عجبٌ فإنّ الْعُربَ قَومى
وَإنى أتْبَعُ الإسـلام دينَـا

الخليفـة : هـذا الْفتى أحـقُّ بالنّعماء
من كلّ مَن يمشى عَلَى الْغبراء
فاقْضُوا لهُ ما يَشْتهى مِن حاجِهِ
وَلوْ أراد النّجْم فى أبرَاجِهِ
وَبَلّغُوا أمرِى إلى الصَّرّافِ
يُعطيـهِ عشْرةً منَ الآلافِ
وهْوَ منَ الآن يَصِـيرُ والِيَا
فى «أذربيجانَ» وفى «أرمينيا»

جزيرةُ العِـراق من أعمـالِه
خُزَيمةُ يُصْبحُ من عمّـالِه

عكرمة : هـذا لعمْرى كرَمٌ كبيرُ
أحدالحاشية: اهْنَأْ به
ثان : أَنْتَ بِهِ جَـــدِيرُ
ثالث : بِمِثْلِ هـذا تُضْرَبُ الْأَمْثالُ
رابع : وهكذا فَلْتَكُنْ الرِّجالُ
الخليفة : هٰذَا فتى أَخْلِقْ بِهِ أَنْ نَرْفَعَهْ
قَدْ فعل الْبِرّ وَأَخْفَىٰ مَوْضِعَهْ
لَمْ يُعْطِ عَنْ ضيقٍ لِيُعْطَى عَنْ سَعَهْ
وَلَا أَتَىٰ الْبِرّ ٱبْتِغَاءَ الْمَنْفَعَهْ
ولا بِمَنٍّ أَوْ رِياء شَـفَعَهْ
مَعْرُوفُهُ عِنْدَ الإِلٰهِ ٱسْتَوْدَعَهْ
مَنْ سَاعَدَ الْمُحْتَاجَ فَاللّٰهُ مَعَهْ
لا يَحْصُدُ الْخَيْرَ سِوَى مَنْ زَرَعَهْ

مَنْ منَّ بالفِعْلِ الجَمِيل ضَيَّعهْ
خيْرٌ لِمَنْ يَمُنُّ ألا يصْنَعهْ
صُنْعُ الجَمِيلِ خِفْيَةً ما أبْدَعَهْ !
تِلكَ هِيَ المَرُوءَة المُقَنَّعَهْ

(ستار ختام)